لاميَّةُ الطّغرائيِّ

قِرَاءَةٌ في البنَى الفكريَّةِ والأُسلوبيَّةِ

♦ أ.د. وليد السراقبي(*)

المقدمة

سَعَى هذا البحثُ إلى مقاربةِ لاميَّةِ الطّغرائيِّ من خلال مستويين:

١- المباني الفكرية

٢- المباني الأسلوبية

فعمد إلى إثبات النص، ثم تقسيمه إلى مقاطع بحسب البنى الفكرية التي تضمَّنها كل مقطع على حدة. ثم انتقل إلى مقاربة المباني الأسلوبية الأكثر ظهورًا في النَّصِّ، والتي كانت متكأ الذات المبدعة في خلق التماسك النصّي عامة، فعرَّج على استثمار القِيَمِ الصوتية من خلال ما يعرف بـ «الجناس»، وانتقل إلى تبيان القيم الدلالية من خلال البنَى الأسلوبية من خلال الإلماح إلى علاقات الإضافة الظاهرة في النص. على أنَّ في النَّصِّ مباني أسلوبية أخرى كثيرة يمكن أن نلمَّ بها في دراسة أخرى، نحاول بها تأكيد سِرَّ خُلُودِ هذا النَّصّ.

كانَ مَولِدُ الطّغرائيِّ سنة ٤٥٣ هـ؛ أي بعد أنْ وَطِئَتْ سنابُك خيل طغرل بك السلجوقي بغداد وأفول نجم الحكم البويهيّ سنة (٤٤٧ هـ)، فكان عمره سنتين حينَ تُوُفِّيَ (طغرل بك) سنة (٤٥٥ هـ)، وتولِّي ابنه (ألب رسلان) السلطنة بعد أبيه بين سنوات ٤٥٥ – ٤٦٥ هـ، ولقي حَتفه زمن محمود بن محمد ملكشاه سنة ٥١٥ هـ، وبذلك يكون الطغرائي قد عاصر سنة من السلاطنة السَّلجوقيين،

(*) كلية الآداب – جامعة حماه – سورية.

وأربعة من خلفاء بني العباس وهم: القائم (٤٤٢ – ٤٦٧ هـ)، والمقتدي (٤٦٧ – ٤٨٧هـ)، والمستظهر (٤٨٧ – ٥١٢)، والمسترشد (٥١٢ – ٥٢٩ هـ)، وهم خلفاء ليس لهم من السلطة شيء يذكر، إذ كان الحل والعقد بيد السلاطين الذين كانوا لا يستنكفون عن إبداء مظاهر الاحترام لمنزلة الخليفة الدينية، فحسب، «ولكنهم لا يتورَّعون عن مخالفة أمره أو إهانته إذا اقتضت مصلحتهم»[١]، فلم تكن سلطتهم تتجاوز مصراعي باب قصره[٢].

نقلَ ابنُ العَدِيمِ عَنِ الحافظ أبي عبد الله بن محمد بن النجار في التاريخ المجدَّد لدار السلام أنه قَالَ في سياق الترجمة للطغرائيّ: «... كان يَتَوَلَّى الطغراء للسلطان محمد بن ملكشاه ... ثم وَلَّاهُ الإشراف على المملكة في بَعضِ الأوقات، ثم عَزَلَهُ وأَمَرَهُ بلزوم منزله، وكان ابنه أبو المؤيد بن محمد بن الحسن يلي الطغراء للسُّلطان أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه، فلما قوي أمر مسعود في سنة ثلاث عشرة وخمسمئة قصده الأستاذ أبو إسماعيل ولجأ إليه، فتلقاه بالإكرام، ووَلَّاهُ الوزارة في شهر ربيع الأوَّل من السنة المذكورة، ولقّبه قوام الدين، وسار في الجيش مع مسعود إلى باب (همدان) لقتال محمود، فانهزم المعسكر المسعودي، وأُخِذ أبو إسماعيل الوزير أسيرًا إلى حضرة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فقتله»[٣].

ونقل ابنُ العديم عن السمعاني في خبر الموضع الذي كان فيه مقتل الطغرائي أنَّ شافعًا الطبيب الجرجانيّ دخل على السلطان طغرل بن محمد بن محمد ملكشاه في «هَراة» ليداويه، فقال له طغرل: أنَا تحت شجرة وعليها عصافير تؤذيني، فقال: يا مولاي! تأمر الغِلمان ومعهم قوس البندق يضربونها ويفرقونها. فقال: لا يجوز هذا أن أنفِّرَهَا مِن أوكارها، وآثم بذلك، فتبسَّم الطبيب؛ فقال له طغرل: لِمَ تبتسم؟ فقلت: يا مولانا! تقتل الأستاذ أبا إسماعيل المُنشئ مع ما فيه من الفضل، وتحترز من تنفير العصافير ؟ فَقَالَ لي: يا شافع! الفضْل ينبغي ألا يكون من الفضول، فإذا كان في الفاضل الفضول يهلكه. قَال: ثُمَّ سمعت إسماعيل الباخَرْزي أنَّ الأستاذ أبا إسماعيل قتله محمود بن محمد بن ملكشاه، وأنا لا أشكُّ فيه[٤].

وتتجاذب زمن مقتله روايات متعددة، فمن قائل: إنه قُتِلَ سنة ٥١٣[٥] أو ٥١٤ هـ [٦]، ومن قائل: إنه قتل سنة ٥١٥ هـ [٧]، أو٥١٨ [٨]، ولكن أكثر الروايات رجحانًا أنَّ مقتلَهُ سنة (٥١٥ هـ)[٩]، وعلى هذا إجماع أغلب المصادر[١٠] .

لقد كان العصر الذي عاشَ فيه الطغْرائيّ عَصْرًا شديد الاضطراب في المستوى السياسي، وكان مقتله ملمحًا من ملامح التلعُّب السِّيَاسيّ، ونتيجة من نتائج طِمَاحه وتطلّعه فحيكت له خيوط مؤامرة الاتهام بالزندقة[١١]، فقُتِل صبرًا، وانطَوَت بمقتله حياة شاعرٍ طبقت «لاميته» الآفاق.

---

(١) الطغرائيُّ حياته ، شعره، لاميته: ٩.
(٢) المرجع نفسه: ٩.
(٣) بغية الطلب : ٢٦٩٧ و٢٦٩٨ .

(٤) بغية الطلب ٢٧٠ . ونقل ابن العديم فَحوَى هذا الخبر في موضع آخر (ص ٢٧٠٠)، وذكر أنَّ مَقتله كان في (بلخ) بقرية تدعى (طغاباذ) لا في هراة.
(٥) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٠ .
(٦) المصدر نفسهُ ٢/ ١٩٠ .
(٧) المصدر نفسهُ ٢/ ١٩٠ ، نقلًا عن : السمعاني في « الأنساب» .
(٨) بغية الوعاة : ٢٦٩٩.
(٩) بغية الطلب ٢٦٩٨ و ٢٦٩٩ ، ومعجم الأدباء : ٣/ ١١٠٧، ووفيات الأعيان ٢/ ١٨٥ – ١٩٠.
(١٠) يُنظر في ذلك ما سرده الدكتور عليّ جواد الطاهر في كتابه : الطغرائيّ ، حياته ، شعره، لاميته: ٣٦ ، الحاشية ٥٢، وص: ١٣٧.
(١١) ..... لفضله، فاعتدُّوا قتله بهذه الحجة « ، وفيات الأعيان ٢/ ١٩٠.
وذكرَ ابن الأثير في حوادث سنة (٥١٤ هـ) قول السلطان في الطغرائي: «قَدْ ثَبَتَ عِنْدِي فَسَادُ دِينِهِ وَاعْتِقَادِهِ». الكامل في التاريخ ٨/ ٦٤٩.

ولكن الاضطراب السِّيَاسيَّ وفتن العصر الذي فتح فيه الطغرائي عينيه وعاشَ فيه حياةً تجاوزت ستين سنة يقابله ألَق في المُستوَى الفِكريّ والحضاري والأدبي، ذلك أنه كان امتدادًا للعصر البويهيّ الذي عَرَفَ ازدهارًا في علومٍ شَتَّى، منها الأدب، فحسبه أن فيه من الأعلام أبا إسحاق الشيرازيّ، والجوينيّ، والزمخشريّ، وصُرَّ دُرَّ، والأبيوردي، وابن الهبارية، وحيص بيص، والطُّغرائيّ، وغيرهم.

حَظِيَ الطغرائيُّ بمنزلةٍ رفيعةٍ، فَأَثنَى عليه كُلُّ مَنْ تَرجمَ له، لم أَجد فيهِم مَنْ حَادَ عن ذلك، فَوَصَفَهُ ابنُ كثير بـ « العميد فخر الكتاب، الليثي الشاعر»[١٢]، وقال فيه ياقوت الروميُّ: « كان آية عصره بِصَنعَةِ الأَدَبِ وكانَ مُحتَرمًا كبيرَ الشأن جليل القدر»[١٣]. وقال ابن العديم: «... وكان حسن المعرفة باللغة والأدب، أقْوم أهل عصره بقراءة الشعر وكتابة الرسائل»[١٤].

ولم تقل منزلتُهُ في الشعر عن منزلتِهِ في السِّيَاسَةِ؛ فقد خلَّف الطّغْرائيّ ديوانًا شِعريًّا بِاسمِهِ وَسَمَهُ غيرُ وَاحدٍ بالجودة، فقال فيهِ ابنُ خلِّكان: «كان غزير الفضل، لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والشعر ... له ديوان شِعرٌ جَيِّدٌ»[١٥]، وتقاطر المترجمون له على ترداد هذه الأقوال[١٦]، ولعلَّ وَصفه بـ «الأستاذ» مُؤَشِّرٌ وَاضِحٌ على منزلته في السياسة والأدب معًا.

ويجمعُ مَنْ تَرجَمَ لهُ على تَقَدُّمِهِ في صِنَاعَتَي النَّظْمِ والإنشاء[١٧]، وعلى أن واسطة العقد في ديوانه، وذروة سِنَامِهِ هي قصيدته اللامية، فلا تجد وَاحِدًا منهم لم يذكر أنَّها من «محاسن شعره»[١٨]، ويورد لـه منها بضعة أبيات. قال ياقوت : « ... ومن شعر مؤيّد الدين الطغرائيّ قصيدته التي تداولها الرواة وتناقلتها الألسنُ، المعروفَة بلاميَّةِ العجم....»[١٩] فما هي؟ وما مُحَفِّزَات ولادتها، وما السرُّ الكامن وراء تسميتها وخلودها؟

عَرَفنا مِن قبل أنَّ الطغرائيَّ كانَ يَتَوَلَّى منصب رئيس الطغراء، ويعني في مصطلح عصرنا « الديوان «الذي تصدر عنهُ أوامر السُّلطان، وهو مَنصِبٌ مُهِمٌّ، فعنه تصدر كُلُّ الكُتُبِ التي يريد السلطان أَنْ يوجهها إلى الأقاليم والنَّواحي التابعة لسلطته، ولهذا كان ينعت الطغرائيّ بـ «المنشئ» إلى جانب وَصفه بـ «الشاعر»، وقيل عنه: إنه فاق أهل عصره في صنعتي النظم والنثر[٢٠] .

ويبدو أنَّ تَسَنُّمَهُ هذا المنصب الرفيع أوغر عليه صدور منافسيه، فشرعوا يدبرون له المؤامرات، فكان من جرَّاء ذلك أن عزله السلطان عن منصبه هذا سنة (٥٠٥ هـ)، فتلعَّب هذا الأمر بنفسه، فولدت هذه القصيدة، فَجاءت في حُدُودِ ستين بَيتًا على بحر الكامل، وفيما يأتي نصُّها كما احتجنها ديوانه[٢١] الذي نَهدَ إلى تحقيقه العلامة الدكتور علي جواد الطاهر، رحمه الله:

أصالةُ الرأي صانتْني عن الخَطَلِ

وحِليةُ الفضلِ زانتني لدَى العَطَلِ

(١٢) البداية والنهاية ١٢/ ١٩٠.
(١٣) معجم الأدباء : ٣/ ١١٠٧.
(١٤) بغية الطلب : ٢٦٩٧ و ٢٦٩٨ . ويُنظر : وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥– ١٩٠ ، وشذرات الذهب ٦/ ٦٨ (وفيات ٥١٤هـ).
(١٥) وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥-١٩٠.
(١٦) يُنظر في ذلك: بغية الطلب: ٢٦٩٤ و ٢٦٩٥ و٢٦٩٦، وشذرات الذهب ٦/ ٦٨.
(١٧) تُنظر المصادر المذكورة في الهوامش السابقة.
(١٨) وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥-١٩٠، والبداية والنهاية ١٢/ ١٩٠، وشذرات الذهب ٥/ ٦٨.
(١٩) معجم الأدباء: ٣/ ١١١٠ .
(٢٠) وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥-١٩٠، وشذرات الذهب ٦/ ٦٨، وغيرهما.
(٢١) ديوان الطغرائي : ٣٠١ ، والطغرائي : حياته ، شعره، لاميته: ٨٤ – ٩٤ .

مجدي أخيرًا ومجدِي أوّلًا شَرَعٌ
والشمسُ رأْدَ الضُحَى، كالشَّمْسِ في الطَّفَلِ
فيمَ الإقامةُ بالزوراءِ لا سَكَني
بها، ولا ناقتي فيها وَلا جَملي
نَاءٍ عن الأهلِ، صِفْرُ الكفِّ، منفردٌ
كالسَّـيفِ عُـرِّيَ متنـاهُ مِـنَ الخَلـلِ
فلا صديقَ إليه مشتكَى حزَني
ولا أنيـسَ إليـهِ منتَهَـى جـذَلي
طالَ اغترابيَ حتى حنَّ راحلتي
ورحُلهـا وقـرَى العَسَّـالةِ الذُّبـلِ
وضَجَّ من لَغَبٍ نضوي، وعجَّ لما،
يلقَـى رِكابـي، ولـجَّ الركبُ في عَذَلي
أُريدُ بَسْطةَ كَفٍ أستعينُ بها
عـلى قَضَـاءِ حُقـوقٍ للعُـلَى قِبَلي
والدهرُ يعكِسُ آمالِي ويُقْنعُني
مِـنَ الغَنِيمَـةِ بَعـدَ الكَـدِّ بالقَفَـلِ
وذِي شَطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ
لمثلـهِ غـيرَ هَيَّـابٍ ولا وَكِلِ
حلوُ الفُكاهةِ، مُرُّ الجِدِّ قد مُزِجتْ
بقسـوةِ البـأسِ فيـهِ رِقَّـةُ الغَـزَلِ
طردتُ سرحَ الكرى عن ورْدِ مُقْلتِه
والليلُ أغرَى سوامَ النومِ بالمُقَلِ
والركبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ
صاحٍ وآخرَ من خمر الهوى ثَمِل
فَقُلتُ أَدعُوكَ لِلجُلَّى لِتَنصُرَني
وأنـت تخذِلُنـي في الحـادثِ الجَلَـلِ
تَنَامُ عَيني وَعَينُ النَّجمِ سَاهِرةٌ
وتستحيلُ وصِبغُ الليلِ لم يَحُلِ
فهل تُعِينُ على غَيٍّ هَمَمْتُ بِهِ
والغيُّ يزجُرُ أحيانًا عن الفَشَـلِ
إنِّي أُريدُ طُرُوقَ الحَيِّ من إضَمٍ
وقد رَماهُ رُماةٌ الحيِّ من «ثُعَلِ»
يحمونَ بالبِيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ بهمْ
سُـودَ الغَدَائِـرِ حُمْـرَ الحَلْي والحُلَل
فسِرْ بنا في ذِمامِ الليلِ مُهتَدِيًا
بنفحةِ الطِيب تَهدِينَا إلى الحِلَلِ
فالحِبُّ حيثُ العِدَى والأُسدُ رَابِضَةٌ
حول الكِناس لها غابٌ من الأسَلِ
نؤمُّ ناشئةً بالجرع قد سُقيت
نصالها بمياه الغُنْج والكَحَل
قد زادَ طيبَ أحاديثِ الكرامِ بها
ما بالكرائمِ من جُبنٍ ومن بُخُلِ
تبيتُ نارُ الهَوى منهنَّ في كَبِدٍ
حرَّى ونار القِرى منهمْ على القُلَلِ
يقتُلنَ أنضاءَ حبٍّ لا حَراكَ بها
وينحـرونَ كـرامَ الخيـلِ والإبِـلِ
يُشفَى لديغُ الغواني في بُيوتهِمُ
بنهلةٍ من لذيذِ الخَمْرِ والعَسَلِ
لعلَّ إلمامةً «بالجِزعِ» ثانيةً
يـدِبُّ فيهـا نسـيمُ الـبُرْءِ في علـلِ
لا أكرهُ الطعنةَ النجلاءَ قد شُفِعَتْ
برشقةٍ من نِبالِ الأعيُنِ النُّجُلِ
ولا أهابُ صِفاح البِيض تُسعِدُني
باللمحِ من صفحاتِ البِيضِ في الكِلَلِ
ولا أخِلُّ بغِزلان أغازِلُها
ولو دهتني أسودُ الغِيل بالغِيَلِ
حبُّ السلامةِ يُثْني همَّ صاحِبه
عن المعالي ويُغرِي المرءَ بالكَسلِ
فإن جنحتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقًا
في الأرضِ أو سـلَّمًا في الجـوِّ فاعتـزِلِ
ودَعْ غمارَ العُلى للمقدمين على
ركوبِها واقتنِعْ منهن بالبَلَلِ
رضَى الذليلِ بخفضِ العيشِ يخفضُه
والعِـزُّ عنـدَ رسـيمِ الأينُـقِ الذُّلُـلِ

فادرأْ بها في نحورِ البِيد جافلةً
معارضــاتٍ مثانــى اللُّجــمِ بالجُدَلِ
إن العُلَى حدَّثتِني [وهي صادقةٌ]
في مــا تُحــدِّثُ أنَّ العــزَّ في النُّقَـلِ
لو أنَّ في شرفِ المأوى بلوغَ مُنًىً
لم تبرحِ الشمسُ يومًا دارةَ الحَمَلِ
أهبتُ بالحظِ لو ناديتُ مستمِعًا
والحظُّ عنِّيَ بالجُهَّالِ في شُغُلِ
لعلَّهُ إنْ بَدا فَضْلي ونقصُهُمُ
لعينِــهِ نــامَ عنهــمْ أو تنبَّــهَ لِي
أعلِّلُ النّفسَ بِالآمَالِ أرقُبُها
ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمَلِ
لم أرتَضِ العيشَ والأيَّامُ مُقبلةٌ
فكيف أرضَى وقد ولَّتْ على عَجَلِ
غالى بنفسيَ عِرفاني بقيمتِها
فصُنْتُها عن رخيصِ القَدْرِ مبتَذَلِ
وعادةُ النصلِ أن يُزْهَى بجوهرِهِ
وليــس يعمــلُ إلّا في يــدَيْ بَطَـلِ
ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بي زمني
حَتَّــى أرَى دَولــةَ الأوغــادِ وَالسّــفَل
تقدَّمتني أناسٌ كان شَوطُهُمُ
وراءَ خطويَ لو أمشي على مَهَلِ
هذا جَزاءُ امرئٍ أقرانُه درَجُوا
مــن قَبْلِــهِ فتمنَّــى فُســحَةَ الأَجَــلِ
وإنْ عَلانِيَ مَنْ دُونِي فلا عَجَبٌ
لِي أُســوةٌ بانحطــاطِ الشَّــمس عــن زُحَــلِ
فاصبرْ لها غيرَ محتالٍ ولا ضَجِرٍ
في حادثِ الدهرِ ما يُغني عن الحِيَلِ
أعدى عدوِّكَ أدنى من وَثِقْتَ بِهِ
فحاذرِ الناسَ واصحَبْهُمْ على دَخَلِ
وإنَّما رجلُ الدُّنيا وواحِدُها
مــن لا يعــوِّلُ في الدُّنيــا عــلى رَجُــلِ
وحسنُ ظَنِّكَ بالأيام مَعْجَزَةٌ
فظُــنَّ شَرًّا وكــنْ منهــا عــلى وَجَــلِ
غاضَ الوفاءُ وفاضَ الغدرُ وانفرجتْ
مسافةُ الخُلْفِ بين القولِ والعَمَلِ
وشانَ صدقَك عند الناس كِذبُهمُ
وهــل يُطابَــقُ معــوَجٌّ بمعتَــدِلِ
إن كان ينجعُ شيءٌ في ثباتِهم
على العُهودِ فسبَقُ السيفِ للعَذَلِ
يا واردًا سؤْرَ عيشٍ كلُّه كَدَرٌ
أنفقــتَ عُمــرَكَ في أيامِــكَ الأُوَلِ
فيمَ اقتحامُكَ لُجَّ البحرِ تركَبُهُ
وأنــتَ تكفيــك منــه مَصَّةُ الوَشَــلِ
مُلْكُ القناعةِ لا يُخْشَى عليه ولا
يُحتاجُ فيه إلى الأنصار والخَوَلِ
ترجو البَقاءَ بدارٍ لا ثَباتَ لها
فهل سَمِعْتَ بظلٍّ غيرِ منتقلِ
ويا خبيرًا على الأسرار مُطّلِعًا
اصْمُتْ ففي الصَّمْتِ مَنْجاةٌ من الزَّلَلِ
قد رشَّحوك لأمرٍ إنْ فطِنتَ لهُ
فاربأْ بنفسكَ أن ترعَى مع الهَمَلِ

أطلق عليها اسم «لامية العجم» وليس بينها وبين العجم وعجمتهم قريب نسـب، فقائلها عربيّ دئلي، وليـس فيها ما يشـير إلى ميل أو جنـوحٍ أو تعصبٍ للعجم، فلعلَّ مجيئها على رويّ اللّام، وهو رويّ لامية العرب نفسـه، ووجود لفظ «الأصبهاني» في سلسلة نسـبه لولادتـه ثمة، إضافـة إلى ما تمثلـه القصيدة نفسـها من نكوص واغتراب عن المجتمع، كل أولئك جعل مترجميه ودارسـيه ينظرون إليها نصًّا يوازي لامية الشـنفرى . ولسـتُ أتَّفِقُ مع الدكتور شـوقي ضيف في أنَّ سَـبَبَ التسمية أن صاحبها كان يعيش في بلاد العجـم(٢٢)؛ ذلك أنه حـين انبثاقها وولادتها كانَ يعيشُ في بغداد.

---

(٢٢) تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات (الجزيرة – العراق – إيران) : ٥٨٤.

وكثر تعليل تسمية القصيدة بلامية العجم بين القديم والحديث، فذكر ابن العديم أنها سميت بذلك من باب الإعجاب بها والتفضيل « على غيرها من أشعار العرب، كما سمُّوا قصيدة الشنفرى التي أولها:

أقيموا بني أُمِّي صُدُورَ مَطِيَّكُمْ

فإني إلى قوم سواكم لأميلُ

لامية العرب تَفضيلًا لها على غيرها من أشعار العرب»[٢٣].

وعلّل د. شوقي ضيف تسميتها بأنَّ قائلها كان يعيش في بلاد العجم، وجَعَلَ رَوِيَّهَا مثيل روي لامية العرب للشَّنفَرَى[٢٤].

وذهب الصفدي إلى أنها سميت « لامية العجم تشبيهًا بلامية العرب؛ لأنها تضاهيها في حكمها وأمثالها»[٢٥].

وجعل طه الراوي القصيدة معارضة لقصيدة الشنفرى، وأن الطغرائي هو الذي سمَّاها بذلك، وبسط في سبيل ذلك تساؤلًا: هل فكر الطغرائي عند معارضته لتلك القصيدة أن يرسم لنا في قصيدته صُوَرًا صادقة من أخلاق العجم ومطاوي نفسياتهم، وكيفية معاشهم في حواضرهم وأريافهم؟»[٢٦]. وذهب كذلك إلى أن الطغرائي نفسه هو الذي سماها بذلك[٢٧].

ويجاب على ما أورده الأستاذ طه الراوي – رحمه الله – أن القصيدة ليس فيها شيء مما هو مرتبط بحياة العجم لا في حواضرهم ولا أريافهم. وهذه القصيدة ليست معارضة لقصيدة الشنفرى، فليس بينهما أي لقاء إلا في الروي، ومعلوم أنّ المعارضة لا تقتصر على اللقاء في حرف الروي بين النصين، بل لا بد من انضمام الوزن والموضوع أيضًا. فلم يدر بخلد الطغرائيِّ مِن قريبٍ أو بعيدٍ أَنْ يُعارِضَ لاميَّةَ العَرَبِ، ولا داعي للمقابلة بين النصين وليس من مجال إلى ذلك. بل جعل الدكتور علي جواد الطاهر أن تعقد مقارنة بين قصيدتين لا رابط بينهما، ولا يتشابهان في الوزن أو في إيقاع لام القافية»[٢٨].

ويمعن الطاهرُ في تسخيفِ المقارنة بين اللاميتين بأن لامية الشنفرى لم يجمع الدارسون على أنها له، فقد ذَهَبَ عبد الرزاق البصيرُ إلى أنها لخلف الأحمر نحلها الشنفرى، وهي تسيء إلى العرب لما فيها من وصف لهم باللصوصية وقتل النساء، وأكد أن أبا علي القالي يروي عن ابن دريد أنها لخلف. يُضَافُ إلى ذلك أنَّ أبا الفرج أهمل روايتها، وأن لسان العرب لا يستشهد ببيت واحد منها[٢٩].

ولسنا الآن في وارد تفنيد تلك الآراء والرد عليها أو موافقتها، ولكن ضرورة الإشارة إلى أن نسبة القصيدة إلى العجم كانت أول مرة على لسان ياقوت الرومي في (معجم الأدباء)، واقتدى به في ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان[٣٠].

وأما أن القصيدة تَصِفُ العرب باللصوصية وقتل النساء، فلاميَّة الشَّنفَرَى تَصِفُ حياةَ شخص أو مجموعة من الأشخاص الذين تمردوا على قيم المجتمع، فكانت الإغارة سبيل حياتهم.

وأما جعل إهمال أبي الفرج لروايتها؛ فإنَّ أَبَا الفَرَجِ مشهودٌ لهُ بِشعوبيته من جهة، وبأن كتابه

---

(٢٣) بغية الطلب: ٢٦٩٤.

(٢٤) عصر الدول والإمارات: ٥٨٤.

(٢٥) خليل بن أيبَك: الغيث المسجم ١/ ١٣.

(٢٦) الراوي، طه: مجلة الصباح، ع ٥، ص: ٤ و ٥ [عن: الطغرائيُّ حياته ، شعره، لاميته: ١١٤].

(٢٧)الطغرائيُّ حياته ، شعره، لاميته: ٤ و ٥.

(٢٨) المرجع نفسهُ: ١١٥.

(٢٩) الطغرائيُّ حياته ، شعره، لاميته: ١١٥، ويُنظر: أمالي القالي ١/ ١٥٦.

(٣٠) وفيات الأعيان ١/ ٢٨٤.

«الأغاني» لم يحتجن شعر العرب كلّه، وإنما اختارَ الأصوات التي كانت تغنَّى آنئذ، فترجم لشعرائها، وأوردَ بَعض أشعارهم، ولم يورد شعر شاعر كاملًا.

وأما التعليل بأن ابن منظور لم يستشهد ببيتٍ واحدٍ منها، فإنَّ ابنَ منظور لم يكنْ لهُ شيءٌ مِنَ الاختيار، فقد صبَّ المصادر الخمسة التي جعلها مورد مواد معجمه، ولم يزد عليها، ولم يتنخلها أصلًا.

وأما ما ذهب إليه الصفدي بجعله الطغرائي نفسه هو الذي سمَّى قصيدته بـ «لامية العجم» فهو مذهب لم يعهد في مسالك شعرائنا؛ فلم يروَ عن أحدهم أنه وضع لقصيدته عنوانًا، أو وسمها بوسم يشير إلى مضمونها.

وأما ما روي عن القالي من نقله عن ابن دريد أنها لخلف، فإنَّ عبارة القالي – وإنْ كانت تظللها ظلال من الشك، لكنه – فيما أرى – لم يقطع في ذلك، وأن عبارته ليست إلَّا من قبيل التحرُّز في الرواية، فقد قال: « حَدَّثني أبو بكر بن دريد: أَنَّ القَصِيدَةَ المنسوبة إلى الشَّنفرَى التي أَوَّلها:

أقيموا بني أمي صدور مطيِّكم
فإني إلى قومٍ سِوَاكُم لأَمْيَلُ

له، وهي من المقدِّمات في الحسن والفصاحة والطول، وكان أقدر الناس على قافية».[٣١] ففي قوله: «له» نسبة واضحة إلى الشنفرى، ولم يرد ذكر لخلف في هذا الموضع.

والذي تميل إليه النفس، ويعضده ما فرشناه سابقًا من تعليلات وردود عليها، أن التسمية بـ «لامية العجم» عائدة إلى ما في تلاق بين قصيدته ولامية الشَّنفَرَى في موضوعاتٍ كثيرةٍ من أهمها:

الاغتراب، والفخر، والحكمة، وهي المباني الفكرية الكبرى في النصين، وهذه ميادين رحيبة يمكن العبور من خلالها إلى عقد مقارنة بينهما، وليس على التشابه العروضيّ كما يذهب إليه الدكتور عليّ جواد الطاهر إذ ذهب إلى الازدراء بعقد مقارنة بين قصيدتين لا رابط بينهما ولا تتشابهان في الوزن أو في إيقاع لام القافية[٣٢].

وعلى غرار ما تلقف علماء اللغة لامية «العرب»، فأنزلوها منزلةً ساميةً، فَشَرَحَهَا الزّمخشريُّ، والعكبريُّ، وغيرهما = تلقى العلماء لامية الطغرائي أيضًا، فنهدوا إلى شرحها، واستكناه ما فيها من قضايا تكون مطيَّة لإبداء مهاراتهم، وفيما يلي سرْد لها وفق ما أورده الدكتور علي جواد الطاهر، منسوقة على تاريخ وفيات مؤلفيها[٣٣]، ومن أهمها:

١- شرح العكبري، عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦ هـ)، وهو أقدمها، وبينه وبين وفاة مؤلفها قرنٌ كميلٌ.

٢- شرح علي بن قاسم الطبري (ت ٦٨٣ هـ).

٣- شرح الدَّميري، كمال الدين، محمد بن موسى (ت ٧٣٩ هـ).

٤- شرح صلاح الدين بن خليل الصفدي (ت ٧٦٤هـ).

٥- شرح بدر الدين الدماميني (ت ٨٢٨ هـ).

٦- شرح ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ).

٧- شرح محمد بن عمر الحضرمي (ت ٩٣٠ هـ).

٨- حاشية عبد الرحيم العباسيّ (ت ٩٦٣ هـ).

٩- شرح جلال الدين الحنفي (ت بعد ٩٩٦هـ).

ولقيَتْ مِن الغربيين اهتمامًا[٣٤]، فكانت مناطَ تَرجمتهم إلى أكثر مِن لُغَةٍ، كاللاتينيَّة، والفَرَنسيَّة، والإنكليزية، «وأكبر الظن أنهم أعجبوا بها لإعجاب

(٣١) الأمالي ١/ ١٥٦.

(٣٢) الطغرائيُّ حياته ، شعره، لاميته: ١١٥.

(٣٣)المرجع نفسه : ١١٧-١٢٢.

(٣٤) المرجع نفسه: ١٣٥.

العرب بها، وأنهم نظروا إليها بالعقلية نفسها»[٣٥].

عين على اللامية:

على إثر عزْل الطغرائي من منصبه وإفراده إفراد البعير المقيَّر جاشت نفسه جيشان المرجل، ومادت أحناؤه ميدان الجبال، فانفجر بركان شعره عن قصيدة في ستين بيتًا ينتظمها اثنا عشر، هي:

المقطع الأول: ب١ و ب ٢ الفخر.

المقطع الثاني: ب ٣ – ٧ الاغتراب العام.

المقطع الثالث: ب ٩ و ١٠ مطمح وشكوى.

المقطع الرابع: ب ١١ – ١٦ عودة إلى الفخر.

المقطع الخامس: ب ١٧ – ٢٨ الرحلة إلى الأصول.

المقطع السادس: ب ٢٩ – ٣٥ الطموح.

المقطع السابع: ٣٦ و٣٧ الشكوى مرة أخرى.

المقطع الثامن : ٣٨ – ٤٠ القناعة الذاتية

المقطع التاسع: ٤١ – ٤٢ عودة إلى الفخر.

المقطع العاشر : ٤٣ – ٤٥ الاغتراب الجماعي.

المقطع الحادي عشر: ٤٧ – ٥٢ الحقيقة المرَّة وبيت القصيد.

المقطع الثاني عشر: ٥٣ – ٦٠ القناعة كنز لا يفنى.

ويبدو لي أن هذا التقسيم أكثر دقة من تقسيم د. علي جواد الطاهر،[٣٦] لما في تقسيمنا هذا من محاولة إصابة الحقيقة عن رسم التذبذبات النفسية التي كان النص يحتجنها، فالنص لم يسر على نسق واحد، ولم تحكمه طريقة واحدة في التعبير، فهو يتماوج تماوج النفس التي فاضت بهفكان مسبار نبضاتها وخلجاتها، فكأنه الجهاز الذي ترسم به نبضات القلوب، فيرسم كل تموجاتها، وهذا يؤكد للدارس هذا النص وارتسام لوحاتها في أبياته، ويؤكد مقولة: ما أضمر في القلب ظهر في فلتات اللسان، وأنَّ المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

شرع الشاعر بحديث عن المسألة التي فجَّرت شظايا النص؛ فقد عُزِل من منصبه، وليس هذا المنصب هو الذي يزين الشاعر، فشاعرنا يتحلَّى بالرأي الأصيل، والفضل العميم، وهو صاحب مجد مؤثَّل قبل المنصب وبعده، وكأنَّ مَنْ سَعَوا إلى عزلِهِ ظنوا أنهم بذلك يسلبونه خصيص ... بها المنصب، فالأمر على غير ما ظنوا، فخاب فألهم، ... وقدم راسخة في المعالي، فلا يضير الشمس أن تكون في كبد السماء أو تجنح إلى الغروب، فجوهرها لا يتغير.

فكل من الرأي الأصيل، والفضل الباذخ صفتان راسختان في شخصه لا يضيرهما تحوُّل الأزمنة، فكأني به يقول: أنا الذي كنت أعطي المنصب منزلته، وليس العكس، وكأني به من جهة أخرى يعرِّض بالذي سيلي المنصب من بعده، فهو ليس كشاعرنا رأيًا ومجدًا.

١- الاغتراب: وهوما حاول تصويره في المقطع الثاني ليدفع نفسه إلى قبول عزله من منصبه؛ ذلك أنه يشعر بالغربة المكانية والزمانية والمجتمعية. فما مسوّغ إقامته في موطن ليس له فيه جذور ضاربة، فلا سكنه فيها، ولا من مطامح لها فيها، وليس له عزوة يحتمي بهم، فكان في ذلك كالسيف المعرَّى من كل ما يزينه، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

ناءٍ عن الأهل، صفر الكفِّ، منفردٌ
كالسيف عُرِّي متناه من الخلَلِ

فكل شيء يدفع به إلى الوقوع تحت وطأة كابوس الاغتراب:

فلا صديق إليه مشتكى حزني
ولا أنيس إليه منتهى جذلي
طال اغترابي حتى حن راحلتي
ورحلُها، وقرى العسَّالة الذبل

---

(٣٥) المرجع نفسه : ١٣٦.

(٣٦) الطغرائيُّ حياته ، شعره، لاميته: ٩٥ – ١٠٢.

وإذا كان (هيجل) يجعل الاغتراب ذا دلالة مزدوجة، فهو من جهة يعدُّه دالًا عن التخلي أو التنازل من جهة، وعلى معنى الانفصال عن النفس لعجز الفرد عن الاتحاد بالجوهر الاجتماعي[٣٧] = فإنَّ هذا المفهوم ينطبق تمام الانطباق على شاعرنا؛ فقد عُزِل من منصبه إزاء واقع مذعور العلاقات[٣٨].

٢- الفخر: وقد يكون الفخر في بعض المواضع انتفاجًا تدافع به الذات عن نفسها، وهذا يظهر فيما إذا كانت الذات ليس لها من مقومات هذا الفخر شيء، كأن تفخر بالشجاعة، والأخبار تواترت عنها بالجبن، وليس الأمر في حال شاعرنا كذلك، فالفخر الذي بدأ به نصه لا يشير إلى انتفاج، فإذا تحرينا محتد الرجل وجدنا انه يعود إلى أرومة معروفة بعلو المنزلة؛ فهو عربي دئلي، وهو كذلك ذو شاعرية لا تخفى على أحد، ولا ينكرها منكر، وفي هذا تأكيد أن مجده ليس مجدًا مكتسبًا خوَّله إياه إسناد وظيفة الطغراء إليه.

٣- الحكمة: والقيم التي ينتظمها باب الحكمة في النص متعدِّدة، وقد كان مبدأ ذلك في إسناد الحديث إلى «العلى» والمعالي لا تكذب.

إن العلَى حدَّثتني، وهي صادقة
فيما تحدِّث أن العزَّ في النُّقل

فهذه «العلى» حدّثه بأشياء من جملة أشياء كثيرة، ومن بين ما حدثته به ضرورة الهجرة، فليس ثبات المرء بين جدران بيته شرفًا له، وليس هذا منتهى ما يؤمل، وهذا – فيما أرى- تبرير لتحوُّله وتنقّله من بغداد، فلو كان ثبات الشمس هو مبعث منزلتها وقيمتها لما غادرت برجها الفلكي.

ومن هذه القيم أيضًا أنَّ نفسك حيث تضعها، وقد قيل فيما مضى: المرء حيث يضع نفسه، ولهذا لا بدَّ من صَوْن النفس عن الهبوط إلى ذلك الذل:

غالى بنفسي عِرْفاني بقيمتها
فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

ومن ذلك أيضًا أنَّ التخوّف من ركوب رواحل الطموح يفضي إلى الكسل؛ فمن رضي بإيثار السلامة فليدفن نفسه في الحياة، لأنَّ الحياة ليست مقايضة العيش الخفيض بذلِّ النفس، ولكن الحياة هي الطموح والنهود إلى تحقيقه:

حبُّ السلامة يثني همَّ صاحبه
عن المعالي، ويغري المرء بالكسل
فإنْ جنحتَ إليه فاتخذ نفقًا
أو سُلَّمًا في الجوِّ، فاعتزلِ
ودعْ ثمار العلى للمقدمين على
ركوبها، واقتنع منهن بالبلل

لكن الدارس المدقق يستطيع الوقوف على بؤرة التلاقي بين اللاميتين، وليس وكدنا هنا عقد مقارنة بينهما، وتتمثل هذه البؤرة في الفخر المتمحور حول الأنا، وهذا الفخر عائد إلى الفقد، وهو المحرِّك الأساسي للنصين، فإذا كان الشنفرى قد تلاشت العلاقة بينه وبين مجتمعه، فأصيب بفقد المحيط الذي يجد فيه نفسه، فإنَّ «الطغرائيَّ» فَقَدَ مَنصِبَهُ الذي كان يجد فيه نفسه أيضًا، ومن جراء هذا الفقد نهد إلى «رصيده الأول» من رأي حصيف، وفضل عميم، وأهل كانوا سندًا له، فجاء يستنهض رصيده ويستعينه، فجاء فخره «تعويضًا عن الفقد، وتعزية لنفسٍ مصابة، وتغطية لخيبة، وتماسكًا أمام هذا الناس الذي ألفه على غير ما حلَّ به وصار إليه»[٣٩].

فما أسرع ما انتقل إلى إظهار «الأنا» بعد المطلع التقريري الذي هو بالنسبة إليه «مسلَّمة» لا تحتاج إلى حجاج أو توكيد، فقال:

(٣٧) الأخلاق والحضارة: ٨٥.

(٣٨) مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٠٠.

(٣٩) المصدر نفسه ، ص: ٩٥.

مجدي أخيرًا، ومجدي أولًا شرعٌ
الشمس رأد الضحى مثل الشمس في الطّفَلِ

وهــو بيت صارخ بــ «الأنا»، التي تسـلـك سـبيل دفــاع الذات عن ذاتها ووجوه، و «لعلَّ شـعـر الفخر العربـي كلـه لا يعـدو كونه آليـة من آليـات الدفاع النفسي ضد عدم الثقة بالنفس، وأسلوبًا من أساليب الـذات في إقناع الآخر بـــ «الأنا»، وربما في تشـجيع الأنا وتعزيزها إزاء واقع مذعور العلاقات»(٤٠).

فالبيتُ مُؤَشِّرٌ واضحٌ على الانتماء إلى «الأنا»، وهذا شديد الارتباط بالبيت المطلع:

أَصَالةُ الرَّأْيِ صَانَتني عَنِ الخَطَلِ
وحلية الفضل زانتني لدى العَطَلِ

فهمــا يتعاضــدان في التعويض عــن الانتماء إلى الـــ «نحن» واستبدال له،ومفاده أنَّ المنصب لم يكن يضيف شـيئًا إلى مجده، إذ أصالــة رأيه نأت به عن الولوغ في الخطل، والفضل المتأصل فيه لا المكتسب، هو الذي بقي حليته الضافية بعد عزله.

فالذات اللامنتمية إذا أرادت أن تبرئ نفســها من أي خلــل «عصابي عميق ؛ فإنها تنزع إلى توكيد الأنا على الدوام ... وبذلك يغدو هذا التوكيد خطة دفاعية نفسانية تتم لا شعوريًا في الغالب»(٤١).

المستوى الأسلوبي:

يمثِّل النص « بنية مركبة متماسكة»(٤٢)، و«وحدة كلية شاملة»(٤٣).

ويبـدو لنـا تماسـك اللامية من خلال التماسـك المعنوي (Coherence) الذي يشـير إلى حسن حبك المعاني وائتلافها، وهــو ما وقفنا على بعض منه من خــلال وقوفنـا على المبانــي المعنوية فيــه، من فخر، وحكمة، وقلق، وتشــاؤم، وكلها يأخذ بعضها برقاب بعض.

أمـا المسـتوى الثانـي للتماسـك فهو المسـتوى الشـكلي وعمدته العناصر اللسانية، وهو الذي يدعى « السبك» (Choesien).

والتحليـل اللغـوي لأي نــص أدبـي تحليل بالغ الأهميـة؛ لأن اللغة ترجمــان النفس، فيكون التحليل اللغــوي مَعْبرًا إلى فهم النص من جهة وفهم نفسـية الذات المنتجة له(٤٤).

ولعــلَّ «الثنائيــات الضديــة» مــن أبــرز ملامح التماسك النصي في اللامية، ومنها:

حلو الفكاهة// مرُّ الجدِّ
قسوة البأس // رقة الغزلِ
صاحٍ// ثمِل
تنصرني// تخذلني
تستحيل// لم يحلِ
البيض// السمر
الذليل// العزّ
فضلي// نقصُهم
أضيق// فسحة
ولَّت // مقبلة
غاض // فاض
القول// العمل

ولا عجب في ورود هــذه الثنائيات الجدلية، فهي تعبـير واضح عــن نفسٍ تملَّكها التــأزّم، فلم تجد في معــرض الدفاع عــن «الأنا» من بسـط الحبل لحمل ذهن المتلقــي على التنقل بين السـلـب والإيجاب، وفي ذلك ما فيه التماشي مع الحالةِ النَّفسيَّةِ المتأزمة لمبدع

(٤٠) مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٢٠.
(٤١) المصدر نفسه ، ص: ٢٢٠.
(٤٢) عكاشــة ، محمود : تحليل النص ص: ٢٢١ [عن: علم لغة النص ، ص: ١١٨ و ١١٩].
(٤٣) المصدر نفسه.
(٤٤) مقالات في الشعر الجاهلي: ٢٣٠ و٢٣١.

النـص، وتنشـيط نفسي لقبـول ما يمليـه المبدع من بديهيات ومسلَّمات.

ويأتي التجنيس، أو ما سـمَّاه «كوهين» : النظم، ومراده نظـم العنصر اللغـوي = ملمحًا واضحًا من كلامـح سـبك النص، سـواء أكانَ تَجنيسًـا تامًا، أو محرَّفًا، أو غير ذلك.

وهـذا التجنيـس لم يكـنْ حليـةً زائدةً جـاء بها الشـاعر لإثبات مقدرة لغوية، وهو – وفق كوهين – لا يقتـصر على التَّمَركُز في الجانب الصوتي فحسـب، بل يشمل الصوت والدلالة معًا.

وهو تجنيـسٌ نَاصِرٌ للمعنى، وهذا ما اسـتجاده عبـد القاهر الجرجاني، إذ «لا تجد تجنيسًـا مقبولًا، ولا سجعًا حسـنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه».[45] لأن «ما يعطي التجنيس مـن الفضيلة أمر لا يتم إلا بنـصرة المعنى».[46] ومن أمثلة ذلك:

صانتني // زانتني

مجدي//مجدي

الشمس// الشمس

راحلتي// رحلها

ضجَّ// عجَّ

ركابي// الركب

لج // عجَّ

الجلَّى // الجلل

غيّ// الغيّ

رماه/ رماةُ

صفاح// صفحات

البيض// البيض

العلى// على

بخفض// يخفضه.

(٤٥) أسرار البلاغة :١١٠

(٤٦) المصدر نفسه : ٨.

ومعلـوم أن التجنيس أساسـه التماثل الصوتيّ، وهذا يؤكد أن دراسـة المستوى الصوتي لها أهميتها في الوقـوف على دِقَّةِ حبكه صوتًـا ودلالةً، فمن « له أدنـى بصيرة يعلـم أنَّ للألفاظ نغمـة لذيذة كنغمة أوتـار، وصوتًا منكرًا كصوتِ حمار، وأنَّ لها في الفم أيضًا حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم»[47].

ودراسة التشـكيلات الصوتية لا تؤتي ثِمَارَهَا إلا في حال دراستها دراسـة تربط بين المظهر الصوتي للدوال والدلالة الخاصة لكلِّ دال، أي من غير الاتكاء على الظاهرة الصوتية للدوال المتجانسة، ولنأخذ على ذلك قول الطغرائيّ:

ولا أهابُ صِفاحَ البيض يسعدني

باللمح من صفحات البيض في الحلل

فالصفـاح في الشـطر الأول تلتقـي في جذرهـا اللغـوي مـع صفحـات في الشـطر الثانـي، ولكـن العنصريـن مختلفان دلالة، وجـاءت الإضافة لتزيد البعـد الدلالي عمقًـا؛ فالصفـاح الأولى هـي صفاح السـيف، والصفحـات هـي خـدود النسـاء، وهما دلالتـان متباعدتان، وهذا يجعلنا ندَّعي أن دراسـة الإمكانـات الصوتيـة في الشـعر إنمـا هـي بحث في بنية صوتية دلاليـة»[48]، وليس على ما قرَّ في أذهان بعض الدارسـين مـن النظـر إلى الجنـاس على أنه تحليـة خارجية للنص ليس غير. بل يشـجعنا ذلك على التوافق مع الناقد حسن ناظم الذي يؤكد وجود علاقة بين مظاهر الدوال والدلالة العامة للنص[49].

والبعد الجمالي للتجنيس مردّه إلى أنَّه «يعيد على ذهن المتلقـي الصورة اللفظية نفسـها مع اختلاف

(٤٧) المثل السائر ١/ ١٧١ .

(٤٨) البنَى الأسلوبية: ٩٧.

(٤٩) المرجع نفسه: ٩٧.

الدلالة، وهكـذا تحصِّل الفائدة من حيـث لا تُتَوقَّع، ويعيـش المتلقي لحظـة اندهاش واسـتغراب»[٥٠]. فليس «يحسُــنُ تجانــسُ اللفظــين إلا إذا كان موقع معنييهمـا من العقل موقعًا حميـدًا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدًا...»[٥١].

واتَّكأ الشَّــاعرُ في الرَّبطِ بينَ عنـاصِرِ نَصِّهِ اتكاءً وَاضحًا على علاقة الإضافة لتأكيد ما يسرده, وعلاقة الإِضافَةِ هذه قائمةٌ على ربط اسم باسم آخر أو ربطه بضمير، وهذا بادٍ من مطلع القصيدة:

أصالة الرأي صانتني عن الخَطَلِ
وحلية الفضل زانتني لدى العطل

مجدي أخيرًا، ومجدي أولًا شرع
والشمس رأد الضحى، كالشمس في الطفل

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني
بها، ولا ناقتي فيها ولا جملي

فالإضافة في مطلع النص إضافةٌ محوَّلةٌ عن:

رأيي الأصيـل فبعد أن كانـت العلاقة قائمة على علاقـة التبعيـة حوَّل التابـع لأنه المقصد إلى مسـند إليه، إذ هو في معـرض الانتفاض على من عزلوه من منصبـه، فكأنه يقـول لهم: أصالة رأيـي، فــ(الـ) ههنا نائبة عن الضمير. وهذا التقدير ينسـجم تمام الانسـجام مع البيت الثاني الـذي أظهر فيه (الأنا) من خلال الضمـير المضاف إليه (الياء)، فكأن البيت الأول مفض إلى الثاني ؛ فهما متكاملان دلالة وشكلًا، وكأن البيتَ الأوَّلَ تمثّل فيه حسـن الابتداء. انتقال في الحديـث من الجزء إلى الكل، فأصالـة الرأي، وحلية الفضل بعض من مجده التليد.

وكان التركيـب الإضـافي المعـن في التوكيـد والتخصيص يتوسـل به الشـاعر من خـلال بنيتين ظاهرتين، هما: إضافة اسم إلى آخر، أو إضافة الاسم إلى ضمير المتكلم الذي شـاع في أغلـب أبيات النص، وليس هذا الشـيوع شـكليًا فحسـب، ذلك أن أهمية الضمـير تأتي من مسـتويين اثنين: أولهما مسـتوى الربط الشـكلي بـين العنـاصر اللسـانية، وثانيهما: المسـتوى الـدلالي، إذ يجعل مـن العنـاصر اللفظية «بنية متماسـكة في المعنى لا اللفظ لدلالته على معنى في سابق عليه أو لاحق»[٥٢].

فالنـص – كمـا ذكرنـا غير مـرة- بنيـة لفظية ترشح عنها بنية دلالية ترتبط بحالة نفسية مأزومة نتيجة العـزل من منصبٍ كان بالنسـبة إلى صاحبه ذروة الشـعور بتحقيـق «الأنا» الفاعلـة، ولكنَّ هذه «الأنـا» لم تستسـلم، بـل أرادت أن تحقـق وجودها النفسي خارج المنصب، فكثـرت الضمائر الدالة على بُـرُوزِ هذه « الأنا» الفنية التي لم تعدْ «ترى الأشـياء إلا وفق الانفعـالات النفسـية»[٥٣]، فكانت في فعلتها هـذه نقيض التلوُّن الذي تقوم به الحرباء من تلوين جلدها لتتأقلم والبيئـة، بل عملت هذه «الأنا المنفعلة على تلوين جلد الأشـياء، بل وباطنها بلونها هي»[٥٤] . لننظـر مرات تـردد ضمـير المتكلِّم الناضـج بتعالي «الأنا» في بيتين متتاليين:

مجدي أخيرًا، ومجدي أولًا شرع
والشمس رأد الضحى، كالشمس في الطفل

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني
بهـا، ولا ناقتـي فيهـا ولا جمـلي

وفي قولهِ مُؤَكِّدًا غُربَتَهُ:

فلا صَديق إليه مُشْتَكَى حَزَني
ولا أنيسَ إليهِ مُنتَهَى جَذَلِي

(٥٠) المفصَّل في علوم البلاغة: ٦٣٩.

(٥١) أسرار البلاغة: ٧.

(٥٢) تحليل النص : ٢٢٣.

(٥٣) مقالات في الشعر الجاهلي : ٢٤٢.

(٥٤) المرجع نفسه :٢٤٢.

طالَ اغترابي حتَّى حَنَّ راحلتي
ورحلها، وقرى العسالة الذُّبلِ
وضجَّ من لغبٍ نضوي، وعَجَّ لِمَا
يلقى ركابي، ولجَّ الركب في عَذَلِي

ومما يؤكد الحال النفسية المأزومة جنوحه في البيت الثالث إلى الرمز الفياض بالدلالة من خلال استبدال الصفة المشبَّهة «الزوراء» المشتقة من «الازورار» بدلًا من «بغداد»، وهو الاسم الأكثر شهرة وتداولًا، مع أن استعمال الاسم الأصل لا يخلُّ بالوزن العروضي البتة؛ ذلك أن هذه الصفة التي غدت اسمًا آخر لبغداد تحيل – بلا أَدنَى ريبٍ – إلى المكان الذي تنكَّر فيه الآخر لقاطنه ولفظه، وازورَّ عنه، ويقابل ذلك الازورار من المكان ازورار آخر من «الأنا» ورفض منها وتأبٍّ جاء من خلال التركيب الاستفهامي الذي جاء بعد بيتين سرديين بدأت بهما «الأنا» الشاعرة إظهار تأبيها إلى أن بلغت الذروة في البيت الثالث من خلال استفهام بمقطع متسارع «فيمَ؟»، ومحاولة إقناع لهذه «الأنا» بِأَنَّهُ لا رابط يربط «الأنا» بالمكان الذي تنكَّر لها.

وبعد؛ فليس للبحث أنْ يَدَّعي بِأَنَّهُ قد قالَ كُلَّ شيءٍ يُمكنُ أَنْ يقالَ في هذهِ «اللامية»، ففيهِ من القضايا ما يستطيع الدَّارسُ المُتَعَمِّقُ أنْ يسوِّد في تحليلها وتفحُّصها صفحات وصفحات ما يُؤَكِّدُ سِرَّ خلودِ هذه « اللَّاميَّة»، وما فيها من عمق التجربة وحِدَّةِ العَاطِفَةِ اللَّتَينِ عَبَّر عنهما صاحبها باقتدارٍ.

فهذه العواطفُ والحالاتُ النَّفسيَّةُ ... من القوة بحيث يحسّ أنفسَهم فيها ملايين الناس في مشارق الأرض ومغاربها... إنها تجربة خاصة، ولكن صاحبها مِنَ القوة والعنف بحيث أكسب هذه التجربة الشمول والدوام، ودلَّ على استيعابِهِ مجتمعه وانعكاسه في نفسه»[٥٥].

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

- الأخلاقُ والحضارةُ: عادل العوا، مطبوعات جامعة دمشق، ١٤٠٨ – ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.
- أسرارُ البلاغة : عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، دار المدني، جدة، ١٩٩١م .
- الأمالي: أبو علي إسماعيل القاليّ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
- البدايةُ والنهاية : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدِّمشقيّ (ت ٧٧٤هـ)، بيروت، مكتبة المعارف، ط٥، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م.
- بُغيةُ الطَّلبِ في تاريخ حلب : عمر بن محمد ابن العديم (ت ٦٦٠هـ)، تَحقِيق د. سهيل زكار، دار الفكر، دِمشق، ١٩٨٨-١٩٨٩م.
- بغيةُ الوعاةِ في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين عبد الرَّحمن بن أبي بكر السيوطيّ (ت ٩١١هـ)، تَحقِيق مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، القَاهِرَة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- البنَى الأسلوبية : حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط١، ٢٠٠٢ م.
- تاريخُ الأدب العربيّ، عصر الدول والإمارات (الجزيرة – العراق – إيران) : د. شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م.
- ديوانُ الطّغرائيِّ، تحقيق د. علي جواد الطاهر ود. يَحيى الجبُوريّ، بغداد، دار الحرية للطباعة، وزارة الإعلام، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

(٥٥) الطغرائيُّ حياته ، شعره، لاميته: ١١٧.

- شـذراتُ الذَّهَـبِ في أخبـار مَنْ ذَهَبَ : عبـد الحي بن أحمد بـن محمد ابن العمـاد الحنبليّ (ت ١٠٨٩هــ)، حقَّقَهُ وعلَّقَ عليهِ محمود الأرناؤوط، أشرفَ عـلى تحقيقهِ وخَرَّجَ أحاديثَهُ عبـد القـادر الأرنـاؤوط، دار ابـن كثـير، دمشـق - بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الطغرائـيُّ حياتُهُ، شـعرهُ، لاميَّتُهُ، دراسـة وتحليل: د. علي جـواد الطاهر، مكتبـة النهضة، بغـداد، مطبعـة التَّضَامن، ١٩٦٣م.
- علـمُ لغة النَّـصِّ نحو آفاق جديدة، ترجمة سـعيد حسـن بحيري، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- الغيثُ المسجمُ في شرح لَامِيَّةِ العَجَمِ : خليل بن أيبك الصَّفديُّ (ت ٧٦٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٧٥م.
- الكامـل في التاريخ: علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزريّ، المعروف بابـن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق د. عمر عبد السـلام تدمري، دار الكتاب العربـيّ، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيـق د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- معجـمُ الأُدَباءِ : ياقوت الحمـويّ (ت ٦٢٦هـ)، تَحقِيق د. إحسان عَبَّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣م .
- المفصَّـلُ في علوم البلاغـة: د. عيسَى العاكوب، جامعة حلب، ٢٠٠٨م.
- مقالاتٌ في الشِّعرِ الجاهليِّ: يوسف اليوسف، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥م.
- وفيـاتُ الأعيانِ وأنبـاء أبناء الزَّمان : أحمـد بن محمَّد بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسـان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.